الخَـطّ والتّجريدُ

تمهيد: الفَنّ رؤيةٌ للعالَم يَعكسُ من خلالها الفنّانُ نظرةً مُفارقةً للواقعِ تَسْمُو بالإبداعِ إلى الكمالِ، ولمْ تَشذّ الفنونُ عندَ العربِ عنْ هذا المَسارِ في التّصويرِ والرّقْشِ والخَطّ الّذي اتّخذهُ الخطّاطونَ مجَالا أرْحبَ يَبْتكرونَ من خلالهِ صُنوفَ الأشكالِ للقراءةِ تارَةً والإمتاعِ البَصريّ تارةً أخرَى...

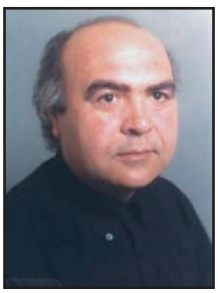

إنّ الإنسـانَ الّـذي خَطّ عنْ وَعْي أوّلَ نُقطـةٍ لِتُصْبحَ خطّا أعْطى وُجُودًا حِسّيًا لشـكْلٍ ذِهْنِيّ، إذ الطّبيعةُ لا تحتوي هذَا الشّكلَ الذّهنيّ مُستقِلاّ بذاتهِ بل تحتَويهِ مرتبطًا بمَوْجوداتهَا. لذلك فإنّ الإنسـانَ رأى ضرورةَ تجريدِ هذه الصّفاتِ وانتزاعها ذهنيّا فقدّمَ للإنسَـانيّةِ أكبرَ خدْمةٍ علميّةٍ، إذْ لوْلا هذا التّجْريد لما كانَت الهندسـةُ ولَمَا كانت الرّياضيّات ولَمَا كانت الفلسفةُ ولَمَا كانَ العِلمُ. والفنّ حسـبَ التّعريفِ الشّاملِ هوَ «إعْطاءُ صورةٍ لِمَادّةٍ»، وبذلكَ يكونُ الخَطّ فنّا مادّتُهُ اللّفظُ الّذي هُوَ بدوْرِهِ فَنّ مادّتُهُ الصّوْتُ...

وكانَ الخَـطّ صورَةً للّفـظِ المعبّرِ عن الفكرِ يحفَظُهُ ويصـوّرهُ تصويرًا، وقدْ قيلَ «خطّ القلَم يُقرأُ بكلّ مَكانٍ وفي كلّ زمَانٍ ويُتَرجَمُ بكلّ لِسـان، ولفظُ اللّسَـانِ لا يتجـاوزُ الآذانَ ولا يعـمّ النّاسَ بالبيَانِ، ولَوْلاَ الكُتّـابُ أي الفَنّانُونَ لانْتَفَتْ أخْبارُ الماضينَ وانقطعـتْ أخبارُ الغابريـنَ»*. وعندما نعلَمُ أنّ أوّلَ محاولاتِ الإنسـانِ لِحفْظِ المَعَانـي والدّلاَلاَتِ كانتْ تَصْويريّة هِيروغْليفِيّةً كَمَا عنْدَ المصْريّين القدامى نُدْركُ أنّ أوّلَ مُحاوَلةٍ للكِتابَةِ كَانَتْ تَجْريدَ بعْضِ الصّوَرِ المَادّيّةِ المحْسُوسَةِ... وقَدْ قيلَ فِي الخَطّ «إنّهُ هنْدَسَةٌ رُوحيّةٌ ظَهَرتْ بآلةٍ جَسَدِيّةٍ».

والخطّ العربيّ هُوَ مَجْمَوعةُ الأشْكالِ والعَلاَمَاتِ الحِسّيّةِ والبَصَريّةِ الّتي تَحملُ المَعنَى المُجرّدَ، ونَتَسـاءَلُ «لِمَاذَا انْتَصَبَ الألِفُ؟ ولِمَاذَا بُسِـطَت البَاءُ؟ ولِمَاذَا كَانتْ النّونُ نِصْفَ دَائرةٍ؟ إنّ هذِهِ الهَنْدَسَةَ التّأليفيّةَ للخَطّ مُسْتَمَدّةٌ من الهنْدَسَةِ الإلَهيّةِ لِصُورَةِ الإنْسَـانِ وَصُورَةِ الكَوْنِ... يَقُولُ إخْوَانُ الصّفاءِ «إنّ صُورَةَ الإنْسَـانِ وبِنْيَةَ هيْكَلِهِ جَاءتْ علَى النّسْبَةِ الأفْضَلِ إذْ جَعَلَ جلّ جَلاَلُهُ طولَ قامَتِهِ مُناسِبًا لِعرْضِ جُثّتِهِ، وعَرْضِ جُثّتِهِ مُنَاسِـبًا لِعُنُقِ تجْويفِهِ، وَطُولِ ذِرَاعيْهِ مُناسِبًا لِطُولِ ساقيْهِ».[2]

الغابرين: الماضينَ

التّجويفُ: العمْق.

فهل الخَطّ العَرَبيّ مُجرّد عَلاماتٍ اصْطُلِحَ عَلَيْهَا لِكيْ تُعبّرَ عَن المعانِي اللّفظيّةِ فَتَشَكّلَتْ صُوَرُهَا وتطَوّرتْ بِتطوّرِ هَذهِ المَعَانِي؟ أمْ أنّ الخَطّ أعْمَقُ منْ كوْنِهِ مُجرّدَ عَلاَمَاتٍ اصْطِلاَحيّةٍ؟

الحبيب بيدة، «صورة الإنسان الكامل في الخطّ العربيّ»، «الخطّ العربيّ»،
بيت الحكمة قرطاج مطبعة أوربيس، تونس 2001 ص ص 139-144 (بتصرّف)

يتجاوز الخطّ العربيّ الوظيفة التّواصليّة إلى الوظيفة الجماليّة،
فتتحوّل الصّفحة لوحة فنّيّة جميلة.

تعريفات

أعـــلام:

المؤلّـف: الحبيب بيدة: تشـكيليّ وباحث وأسـتاذ بالمعهد العالـي للفنون الجميلة بتونـس، مـن مواليد 4 فيفـري 1953 بقرقنة. له أطروحة حول «فـنّ الخطّ والزّخرفة للمخطوطات القرآنيّة بتونس من القرن التّاسع إلى القرن الثّاني عشر» وأخرى باللّسان الفرنسـيّ «مفهوم محاكاة الطّبيعة في الفنّ العربيّ الإسـلاميّ» طُبعت بالمنشـورات الجامعيّة بفرنسا، كتب عديد المقالات بمجلاّتٍ مختصّة في تونس وخارجها.

إخوان الصّفا: جمعيّة من الشّـيعة الباطنيّة عامّة ومن الإسـماعيليّةِ خاصّةً. لازموا التّقيّة والتّسـتّر إلى سـنة 334 هـ قبل اسـتيلاء بني بويه على الحكـم. وقد صرّحوا بهدفهم قائلين «إنّ الشّـريعة قد دُنّسـت بالجَهالاتِ واختَلطتْ بالضّلالاتِ ولا سبيلَ إلى غَسـلِهَا وتَطهيرِهَا إلا بالفلسَـفةِ» كما ورد في كتاب «الإمتاع والمؤانسـة» لأبي حيّان التّوحيديّ. ولهم غايات يسـعون إليها بعضُها سياسـيٌ وبعضها الآخر اجتماعيّ. ألّفوا رسائل في شتّى صنوف المعرفة.

مصطلحات:

الشّكل الذّهنيّ: هو الشّكل الّذي يتمثّل في الذّهن قبل أن يجد حضوره في المادّة.

الهيروغْليفيّـة: الكتابـة المصريّـة التّصويريّـة القديمـة الّتـي تعتمـد التّصاوير المحسوسة للتّعبير عن المعاني المختلجـة في النّفوس، وفـكّ رموزها الباحث الفرنسيّ «شامْبُوليُونْ».

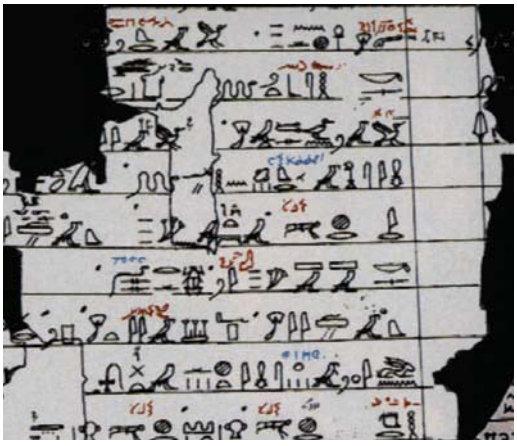

كتابة هيروغليفيّة مصريّة تعود إلى نهاية القرن الثّالث الميلاديّ. (عن مجلّة «علوم وحيـاة» عـ 219 ـدد خاصّ بالكتابة عبر التّاريخ)

التّجريد: هو انتزاع ذهنيّ للقوانين المنظّمة للوقائع الطّبيعيّة (كتجريد العدد والنّقطة).

النّسبة الأفضل: هي العلاقات الرّياضيّة الّتي تنظّم هيئة الموجود.

التّفسيرُ:

إذا كان المراد من «الفهم» هو هذا الإدراك للمستوى الأوّل من الإخبار والإفادة حيث يراد اللّفظ لذاته كان التّفسير نمطا من أنماط عمليّة الفهم . معنى ذلك أنّ التّفسير يترتّب على الفهم وهو إنجاز له، وممارَسة وهما متلازمان تلازما دعا بعض المفكّرين إلى اعتبارهما مترادفين.

أمّا التّفسير فكأنّ مهمّته مقتصرة على تبيّن الوظيفة الإفهاميّة للكلام وهي وظيفة أساسيّة في الكتابة العلميّة، وإذا بالخطاب العلميّ يفسّر ولا يُؤوّل. أمّا في الخطاب الأدبيّ فلا يمثّل التّفسير إلاّ الشّرح المتعلّق بالمعنى الحرفيّ الواضح في المهمّة الإخباريّة في النّصّ، والمفسِّر في هذا المستوى من التّحليل مكتف بالنّصّ متأمّل في بنيته ولغته، معرض عمّا سوى ذلك.

الهادي الجطلاوي، «قضايا اللّغة في كتب التّفسير»،
نشر مشترك بين كلّيّة الآداب سوسة ودار محمّد علي الحامّي، ط 1، 1998 ص ص 26-27

توثيق الشّواهد:

* الجاحظ: رسالة المعلّمين

1 - ابن حجر – «منهاج الإصابة في معرفة آلات الكتابة»، ورقة 2 المكتبة الوطنيّة بتونس.

2 - إخوان الصّفا – «الرّسائل» ج 1 ص 166.

الفهم والتّحليل

1 - قسّم النّصّ انطلاقا من منطق العلاقات التّالية:

- علاقة الخطّ بالطّبيعة.
- علاقة الخطّ بالفكر.
- علاقة الخطّ بالنّسبة الفاضلة.

2 - تواترت في النّصّ أساليب خبريّة (ابتدائيّة وطلبيّة) ساهمت في إظهار صورة الخطّ ودلالته: اخترْ نماذج من هذه الجمل وبيّن وظيفتها التّفسيريّة.

3 - حدّدْ مزايا التّجريد في الخطّ على العلوم والفنّ.

4 - لعب الخطّ دورا هامّا في الانتقال من ثقافة الأذن (المسموعة) إلى ثقافة البصر (المقروءة): فلتجدْ في النّصّ ما يدعّم ذلك.

التّفكير وإبداء الرأي

إنّ تراجع فنّ الخطّ في عصرنا سببه تطوّر وسائل الرّقن الحديثة. حرّرْ فقرة تبرز فيها رأيك معتمدا أساليب تفسيريّة.

إنتاج كتابيّ

ورد في النّصّ: «خطّ القلم يُقرأ بكلّ مكان وفي كلّ زمان ويُترجَم بكلّ لسان، ولفظُ اللّسانِ لا يتجاوزُ الآذانَ ولا يعمّ النّاسَ بالبيانِ». توسّعْ في تفْسيرِ هذا القَوْل في فقرةٍ لا تتجاوَز خمسةَ عشرَ سطرا.

نافذة لغويّة

من أدوات التّأكيد: إنّ

1 - إنّ الإنسانَ الّذي خَطّ عن وَعْيٍ أوّلَ نقطةٍ... أعْطى وُجوداً حسّيّا لشكلٍ ذهنيّ.

2 - إنّ هـذهِ الهندَسـةَ التّأليفيّـةَ للخَطّ مسـتمَدّةٌ من الهنْدسـةِ الإلهيّـةِ لصورةِ الإنسانِ.

إنّ: حـرف تأكيد، يدخل على الجملة الاسـميّة (الخبر الابتدائـيّ بلاغيّا) فيزيد في المعنى الأصليّ، ويرى القدامى أنّ دخوله على الاسـميّة يفيد تكرير هذه الجملة مرّتين. فالجملة الخالية من «إنّ» أقلّ قوّة في المعنى من دخول النّاسخ عليها.

- إنّ + جملة اسميّة ⟵ خبر طلبيّ.
- Ø + جملة اسميّة ⟵ خبر ابتدائيّ.

وباسـتعمال الكاتـب «إنّ» في الجملتـين يكون قد أكّد على دور الخطّ في اكتشـاف الأشـكال الذّهنيّة وفي الجملة الثّانية يقرّ بارتباط هندسـة الخطّ بهندسـة الإله صورة الإنسان.

إغنـاء

يقول إخوان الصّفَا: «إنّ أجود الخطوط وأصحّ الكتابات وأحسن المؤلّفات ما كان مقادير حروفها بعضها للبعض على النّسـبة الأفضل. فلنذكر مـا قاله أهل هذه الصّناعة، نعني صناعـة الكتابة ليكون أقوى وأصحّ للحجّة وأوضح للبيان وأرشـد للقياس والقانون. قال المحرّر الحـاذق المهندس:«ينبغي لمن يكون خطّه جيّـدا وكتابته صحيحة أن يجعل لها أصـلا يبني عليه حروفه وقانونا يقيس عليه خطوطه، والمثال في ذلك كتابة العربيّة. وهو أن يخطّ الألف أوّلا وبأيّ قدر شـاء ويجعل غلظه مناسبا لطوله وهو الثّمُن وأسفله أدقّ من أعلاه، ثمّ يجعل الألف قطر الدّائرة ثمّ يبني سـائر الحروف مناسـبة لطول الألف ولمحيط الدّائرة مساو لقطرها...»

[إخوان الصفا – الرسائل ج 1 ص 167].

مثنّاة بالثّلث الجليّ عدد 190 من كتاب «فنّ الخطّ»]
تداخل فيها فنّ الخطّ بالصّورة البصريّة

نماذجُ من الفنونِ عند العربِ والمسلمينَ

نماذج من الخطّ العربيّ		نماذج من فنّ الخزف العربيّ
الخطّ الدّيوانيّ وهو الخطّ السّلطانيّ، وضع قواعده إبراهيم منيف ت 860 هـ / 1455 م. وكان حكرا على ديوان السّلطان، ثمّ انتشر وتنوّع.		 قطعة خزف من العهد الفاطميّ
الخطّ الكوفيّ انطلق من الخطّ المدنيّ أو المكّيّ، وتلا ذلك الخطّ المحقّق وهو كوفيّ مصحفيّ أصبحت الحروف فيه متشابهة والمدّات متنامية وزيّن بالتّنقيط والتّشكيل، ثمّ تطوّر إلى الكوفيّ الحديث.	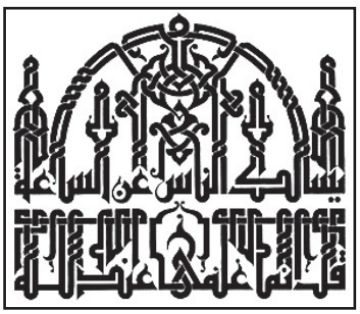	 شمعدان من العهد المملوكيّ
خطّ الثّلث محرّره إسحق بن إبراهيم وقبله كان ابن مقلة 328 هـ/ 940 م والمهلهل معاصره ثمّ اليزيديّ وابن سعد ثمّ ابن البوّاب ت 413 هـ / 1022 م.		
الخطّ الفارسيّ استخلصه حسن الفارسيّ في القرن 4 هـ من أقلام النّسخ والرّقاع والثّلث، وطوّره الأمير علي التّبريزي ت 919 هـ 1513 م ويسمّى «نَسْتَعْلِيق» أي نسخ وتعليق.		 مِسْرَجَةٌ مِنَ العَهْدِ الفَاطِمِيّ

نماذج من الخطّ العربيّ (بتصرّف عن كتاب مصطلحات الخطّ العربيّ والخطّاطين للدّكتور عفيف البهنسي)

نماذج من التّصوير

صورة قديمة تجسّم حوارا بين الأسد وابن آوى: دمنة. وهي تعود إلى 1200 - 1220 م (القرن 7 هـ).

منمنمة المقامة الفراتيّة من رسم يحيى بن محمود الواسطيّ: وهو رسّام عربيّ ولد في بلدة واسط في جنوب العراق. اختطّ نسخة من مقامات الحريري وزيّنها بمائة منمنمة، (عام 1237 م).